

العنوان:	سقوط القيم السياسية الناصرية
المصدر:	مجلة الدراسات الفلسطينية
الناشر:	مؤسسة الدراسات الفلسطينية
المؤلف الرئيسي:	يونس، شريف
المجلد/العدد:	ع 88
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2011
الشهر:	خريف
الصفحات:	48 - 55
رقم MD:	395710
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	EcoLink
مواضيع:	النظم السياسية ، الثورات العربية ، القيم السياسية ، مصر ، ثورة 25 يناير 2011م ، جمال عبدالناصر ، رئيس مصر
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/395710

الثورات العربية والقيم الجديدة

شريف يونس (*)

سقوط القيم السياسية الناصرية

الثورات هي لحظات الحقيقية، اللحظات التي يتجلى فيها الشعب بكونه هو الأساس . وهو إذ يتجلى يطيح بكل عفوية، وبمحض حضوره، بالأكاذيب كافة . فالشعب لا يمكن تكذيبه، لان الكذب يكون موجهاً، بالدرجة الاولى، إليه هو الرزح تحت نظامه القمعي الذي يخضعه، لتفريقه ومنعه من التكتل. فبمجرد ان يتشكل الشعب في جمع، وبمجرد ان يتجلى لنفسه وللآخرين، تصبح الحقيقة ضرورة، فتتشكل الاصطفايات الرجعية كرهة الرائحة، عارية بلا خجل، ويقف حكام المنطقة بمن فيهم حكام إسرائيل صفا مرصوصا، ومعهم منتفعو النظام، والمعارضة " الرسمية "، ويتفق الجميع على ضرورة الضرب بلا رحمة، فهذا ليس وقت الأكاذيب المنمقة عن الشعب العظيم . بهذه الآلية يتكشف الانحطاط المؤسس للأوضاع القائمة إلى أقصى مداها، وتذوب مساحيق التجميل وتسقط التركيبات البلاستيكية الملونة عن الوجه الشائه المملخ والشرة للتحالفات التي تقف على كرامة الشعوب وثروتها وأدميتها. وهذا الضرب بلا رحمة هو الرد الوحيد الممكن على ذلك التحلي الرائع والعظيم لـ " الشعب "، ذلك الكيان الغامض الذي يتحدث كثيرون باسمه، والذي، بتجليه فقط، يسكت هذه الاصوات، فيرتد كل شيء إلى مقاييسه الحقيقية.

كيف تجلى " الشعب " في الثورة المصرية ؟ وما هي رؤيته وقيمه التي أذابت التركيبات البلاستيكية ؟ لن تستطيع أي كلمات أن تعبر عن هذا التحلي مثل ذلك الهتاف الذي ملأ الميادين بمجرد تنحي مبارك : " ارفع راسك فوق .. إنت مصري . "

وبالمعنى الحرفي، فإن ذلك الشعار لا يكاد يعني شيئا، فالثورات مصريون قبل الحدث وبعده، وبالتالي، رفع الراس هو كناية عن العزة والكرامة، ولا يرتبط بكون المرء مصرية، وانما هو في إطار ملاساته الثورية يقول كثيرا. يقول اولا إن " رفع الراس " هذا تجربة جديدة .. شعور غريب وعجيب ومنعش وطازج يغزو الثوار بالملايين فيدهشهم ويفرحهم فرحة طاغية، كأن الشعار يقول " حين كان راسنا مخنيا، كنا مغتربين عن هذا البلد. لم نكن مصريين . " بعبارة اخرى، إذا لم تستطع رفع راسك في بلدك، فأنت لست مواطنا؛ لست، في هذه الحالة، مصرية.



اللافتة التي تبدو في الصورة توضح أكثر.

هذه الالفة الشخصية جدا تقول "أنا كنت بخاف ... بقيت مصري . " فإذا كنت تعيش خائفا، فإن بطاقة الهوية المصرية لن تكون إلا صك عبوديتك واغترابك واهانتك واذلالك، وبهذا المعنى، فإنك إما ان تخاف واما أن تكون "مصريا"، أي شاعرا بآدميتك في بلدك مصر. ربما كان الأمر قبل الثورة عكس ذلك، فإذا كنت تحمل بطاقة هوية من أي دولة أخرى (باستثناء الهوية الفلسطينية)، وخصوصا هوية دولة متقدمة، فأنت غالبا تتمتع بحقوق " مواطنة" وكرامة، بل صكوك امتياز أكبر كثيرا. وربما كان الشعار الملائم قبل الثورة هو؟ " انا أخاف، إذا أنا مصري . "

إن الكتابة عن هذه الفكرة باللغة العربية تبدو شيئا عثيا، لأنك ببساطة مهما ثقل وتحلل، فإنك إنما ستقول ما تعرفه الدنيا بالضرورة عن كل بلد عربي تقريبا. فالحكومات "الثورية" و "الرجعية" كلها لديها نظام للإذلال اليومي، اسمي ذلك جماعة الأمر بالمعروف، ام الحرس الثوري، أم اللجان الثورية والشعبية، أم ببساطة، كما في الحالة المصرية، الشرطة . وما كشفت عنه الثورة المصرية هو شيئا متكاملان . ان الإذلال البوليسي هو الأساس المؤسس لنظام الحكم، وأن السكان الذين يكافحون كي يكونوا "مصريين"، وفقا للشعار، يعرفون هذا الأساس جيدا. وكتابة ذلك من وجهة نظر معظم "المواطنين" العرب تبدو نافلة، لأنها لا تختلف كثيرا عن القول إن الشمس تشرق في الصباح .

الشعار إذا، يشير بكل بساطة ووضوح إلى المعنى الجوهرى، إلى انفجار جذري في أوضاع الإذلال، ويكشف عن سقوط عصر بأكمله، بقيمه وبنائه وانماط سلوكه، وهو سقوط لن تتكشف ابعاده كاملة إلا بعد أعوام طويلة.

وذلك العصر الذي سقط، بقيمه وانتصاراته وهزائمه، يمكن ان نسميه عصر الناصرية، ليس لأن الناصرية هي التي وضعت افكاره وقيمه الأساسية (إذ ربما سبقها الشيشكلي في سورية، وتنظيمات مثل "البعث" و مصر " الفتاة" وغيرهما)، وانما لأنها هي التي اتبع لها الفرصة لإبراز تجليات ذاك العصر عبر تجربة عريضة ظل صداها يتردد في المنطقة عبر كثير من النظم والحركات السياسية، بما فيها الناقدة للناصرية . فمن الخليج إلى المحيط تستطيع ان تقول ما شئت عن "الشعب المصري"، فيوافقك أو يعارضك كثيرون، لكن إذا تحدثت عن عبد الناصر ناقدًا، فإنك ستجد أغلبية واسعة توففك قائلة : إنه هو الذي رفع راسنا في العالم ؛ هو الذي جعل للعرب اسما بعد الحرب العالمية الثانية ؛ هو الذي تحدى الاستعمار وهزمه. ولذلك، حين حلت هزيمة ١٩٦٧ أصبحت هي هزيمتنا التي لم نستطع أن نفيق منها حتى الآن . بهذا كله كانت الناصرية هي التجربة الأكثر نصاعة واستقرارا وتأثيرا وبهجة وذلا، ولذلك، يمكن القول إنها كانت النموذج المعبر عن ذلك العصر الذي يتحطم بأكمله.

عصر "اسم الشعب"

كان عبد الناصر يقول " ارفع رأسك يا اخي، فقد مضى عهد الاستعباد." وهذه العبارة تبدو شبيهة بما قالته تظاهرات التحرير والميادين الرئيسية في مدن مصرية عديدة، لكن الفارق أكثر عمقا واهمية بحيث يمكن القول إنه فعلا يفصل بين عصريين : عصر "اسم الشعب"، وعصر الشعب . فعلى الرغم من التشابهات، فإن المطالب برفع راسه لم يكن واحدا في الحالتين، كما أن وضع موجه النداء كان مهما في تحديد مضمون النداء ومعناه .

لقد جاء عبد الناصر على متن دبابة، ومن موقعه هذا طالب أخاه برفع رأسه، وأمم له قناة السويس، وخاض حرب ١٩٥٦، واقتنص من انياب الهزيمة العسكرية نصرا سياسيا مدويا أنهى عصر الإمبراطوريات الاستعمارية. نستطيع أن نسمي هذا العصر عصر "اسم الشعب"، عصر البطل الذي يأتي بالمكاسب المادية والمعنوية للشعب المعني، شرط أن

يكف عن التحلي كشعب، أي كمجال سياسي يقوم على الصراع السلمي، وان يكتفي بالالتفاف حول الزعيم، ويلتزم الصمت السياسي باعتباره الضمانة العليا لكل عزة وكرامة ونصر وتقدم وعدالة وما إلى ذلك. فالبطل في جميع الحالات يتحدث باسم الشعب، لكن بالنيابة عنه.. والذي كان مسموحا له بالحضور هو اسم الشعب، وكان ما تحرر هو الاسم فقط.

كنا في المدارس الابتدائية نغني : "قناة السويس / قناة السويس ؛ حفرها جدودي / عيسى وعويس ؛ جه (جاء) دي ليسبس (وهو مهندس ومؤسس شركة حفر القناة) / قال لنا هس (اسكتوا)؛ إنتو (انتم) النص (النصف) / واحنا (نحن) النص " جانا (جاءنا) جمال / أبو الأبطال ؛ حرر بلادنا/ وخذ القنال؛ عاش جمال / عاش جمال . " تحولنا إذا، بفضل جمال من متفرجين مقهورين على سرقتنا، إلى متفرجين سعداء بمكاسبنا المادية والمعنوية التي جلبها لنا بطلنا الذي كافح من أجلنا. وبين اللحظتين محيت عقود من الكفاح الشعبي ضد الاستعمار وضد قاعدة قناة السويس التي استخدمتها القوات البريطانية . وبتريدينا للنشيد وافقنا، او "ووفقنا" - فعل متعب واقعي مخالف لقواعد اللغة العربية - على ذلك.

وبالمنطق نفسه، انطلق عبد الحليم حافظ، مطرب العهد، يغني : وصحيت (استيقظت) على ثورة / بترج الدنيا؛ ولقيت (ووجدت) أوطاني/ حكمها في إيديا (يدي)؛ وجمال قدامي (امامي)/ بينادي عليا (علي) ؛ قوم (قم) ارفع راسك/ واشبع حرية . " فالشعب الذي صحا على رجة هائلة، مفزوعا على ما يبدو، وجد امامه مفاجأة سعيدة : اوطانه متحررة ومهداة إليه وهو على سريره، إن جاز التعبير، ومعها "امر بتلقي الكرامة والحرية معا والاستمتاع بهما.

كان ذاك، بصورة عامة، عصر القلة التي تكافح من اجل الكثرة، ولا تطلب سوى الولاء والانصياع التامين، وصولا إلى العبادة . وأساس هذه المطالبة ليس فكرة الشعب، فهذا الاخير هو مجموع السكان من حيث هم مجال سياسي، وانما تتمثل المطالبة بعزل الشعب؛ عزله عن اعدائه، عن السياسيين والمستغلين الذين يضللونه، واقناعه بالخضوع لوصاية البطل ولحراسته له من اولئك الكذابين والمستغلين، وذلك من أجله . كان عبد الناصر إذا، يمثل من الشعب اسمه فقط: اسم جموع خاضعة للحراسة الايديولوجية والبوليسية، وصامته إذا استثنينا هتافات التأييد؛ اسم يحل محل الفعل، لأنه ليس سوى الاسم المتشكل بفعل الصمت السياسي والمشروط بإدامته . اما التنظيمات الشعبية التي أقامها النظام، من هيئة التحرير إلى الاتحاد الاشتراكي، فكانت تعمل في إطار الصمت الذي لا تقطعه سوى هتافات الولاء.

والقيمة السياسية المركزية هنا هي الاتحاد؛ الاتحاد غير الطوعي في جسد واحد. والجسد الواحد يستحيل ان يكون هو الشعب (لان الشعب هو اسم المجال السياسي). ما هو إذا، هذا الجسد الواحد؟ هو الأمة ؛ أمة مصرية أو عربية، وفقا للتطورات، لكنها أمة، اي السكان بصفتهم كيانا موحدًا على أسس ثقافية (بالمعنى الواسع لكلمة ثقافة) تفصل الجسد الواحد عن امم، أي كيانات ثقافية، أخرى . وكان ما تحرر، ما حرره عبد الناصر والنظم والحركات السياسية المشابهة، هو الامة، الهوية، لا الشعب . إنها أمة تتماسك بفضل حراستها من كل تلوث يأتيها من خارجها.. من كل ما يوقع أي انقسام أو اختلاف في صفوفها، من الاستعمار وأعدائه في الداخل . إنها اسم الاصاله العابرة للأحيال، العائدة إلى الصدارة عن طريق البطل . هذه الامة، هذا الكيان الثقافي الافتراضي، هو الذي انتحل اسم الشعب، ولم يكن في قدرة الامة أن تفعل ذلك، أن تتحلى بكامل قوتها كهوية في السلطة، إلا بتسريح الشعب.

ووفقاً لنظام "اسم الشعب"، فإن الشعب ليس سوى أمة هي كيان ثقافي، وذات هوية. والأمة تتحرر بأن تؤكد نفسها، وبأن تنفصل عن المؤثرات الضارة من الخارج، وكل اختلاف في الداخل هو بالضرورة أثر من آثار هذا الغزو من الخارج. وسواء تكلمنا على أمة مصرية أو عربية أو إسلامية أو أي اختراع آخر، فإن البشر وفقاً لهذه المقولات، لن يكونوا سوى جنود الهوية، وحرمتهم وكرامتهم ليستا هما الحريات العامة والكرامة الشخصية، وإنما حرية وكرامة كيان الأمة الجمعي هذا. وسواء تجسد هذا الكيان في الزعيم الضرورة، أو الحزب الضرورة، أو النظام الضرورة، فإن الولاء يصبح هو معيار شعبية الشعب، إن جاز التعبير. فالخروج على الحاكم أو نظام الحكم الضرورة هو خيانة للهوية، وهو تسليمها للأعداء، وهو، في التحليل الأخير إذا، خيانة المرء لنفسه، ولجوهره المفترض والمفروض. فالأمة لا تقوم ككيان سياسي، وبالأدق لا تستطيع أن تستعير قناعه، إلا حين تعتلي جثة المجال السياسي. لكن لماذا لا يترك للأمة نفسها حرية الدفاع عن ذاتها الافتراضية هذه؟ هل ثمة شيء يستطيع أن يدافع عن هوية الحجر، كحجر، أكثر مما يفعل الحجر نفسه، بمجرد وجوده؟ الافتراض الآخر الذي يتضمنه نظام "اسم الشعب" هو أن الشعب، بانقساماته السياسية، افسد الأمة. فقد أتاحت هذه الانقسامات الفرص أمام كل القوى الأجنبية الدخيلة للعب في جوهر الأمة. الشعب هو أساس فساد الأمة، ولذا فإن إجلاله عن المجال العام هو الشرط الأول والضروري لتحلي الأمة. وعلى الرغم من التمجيد كله الذي أضفته الناصرية وما شابهها من أيديولوجيات على الأمة، فإن الفكرة في واقع الأمر كانت أن الموجود ليس سوى فتات أمة، وشعب فاشل، وإن ثمة حاجة إلى إعادة بناء هذه الأمة؛ إعادة بناء الحجر من فتاته، وبلورته حول قطب وحيد جاذب ينهي الوجود المستقل أو شبه المستقل للذرات كافة. فالفائد الضرورة هنا يطرح نفسه باعتباره مجرد خادم للهوية، وأنه ليس سوى فرد تسلم مسؤولية بلورة الحجر مرة أخرى، ومثله مثل الشعب، ليس له قيمة في ذاته. فهو أداة الهوية، وهو لا ينشئها، وإنما يفترضها ويخلص لها.

أيديولوجيا الهوية إذا، لا تعبر عن أي هوية قائمة، وإنما بالعكس، تفترض غيابها.

فمشروعها هو "إصلاح" هوية مكسورة، أفسدها الشعب، أي المجال السياسي، بانقساماته. ولذلك تقوم هذه الأيديولوجيا بالضرورة على احتقار عميق للشعب، ولكل تجل للسكان خارج الاصطفاف في المشروع الهوياتي. الشعب دائماً خائن، أو قابل للعطب والغزو الثقافي والزيف والهوى، كما أن هويته المفترضة يعاد تأسيسها بشرط قمع كل مكوناته، فلا تبقى هذه الهوية إلا بدوام هذا القمع. لكن، والحق يقال، إن أيديولوجيا الهوية هذه تفترض أن مشروعها قابل للنجاح، وذلك حين تأتي لحظة سرمدية افتراضية تشبع فيها كل ذرة، وكل فرد، بفكرة الهوية الافتراضية، فيصبح الحجر قادراً على حماية نفسه من التفتت، حين "يشفى" من أمراض التعدد السياسي والثقافي والتنوع التي فتتته. حينئذ، ستدرد كل ذرة، وكل فرد، أن الهوية، أو الفطرة الأصلية فيه، هي حجرته، أي عروبه أو إسلامه أو مصريته، كيفما ترغب قوة الهوية الحاكمة.

تبدو الهوية إذا، أصيلة وهشة. هي أصيلة بحكم التعريف، وهشة لأنها بحاجة إلى حماية مستمرة، وهي قابلة للعطب بمنتهى السهولة، لأن الأعداء يحيطون بها من كل جانب، من الداخل ومن الخارج، والمؤامرات حولها لا تتوقف. ومن خلال الجمع بين الاصلية والهشاشة يتم بناء وإدامة كيان سياسي هش لا يجمعه سوى العنف الذي هو ترياق

المشاشة الوحيد. ومن خلال ذلك يتم تهشيم الشعب فعليا، بحرمانه من أي حركة مستقلة، ومن تشكيل مؤسساته الخاصة، باعتبارهما الخطر الاشد على هويته.

إن تداعيات ذلك كثيرة، لكن يكفي أن نرصد هذا التناقض الجوهرى الذي يشكل في مرحلة انحطاطه جوهر أيديولوجيا الثورة المضادة . فليس مصادفة ان نظرية المؤامرة الاجنبية، من القاعدة إلى إسرائيل، كانت السلاح الأيديولوجي الرئيسي الذي استعملته جميع النظم وهي تواجه الثورة .

لكن الثورة لم تكن قط ضد الناصرية مباشرة.. فقبل ان تندلع كان نظام تموز/ يوليو ١٩٥٢ قد مر بتطورات، وكان عبد الناصر مات منذ نحو أربعين عاما، وسقطت أسطوره اصلا قبل وفاته، مع الازمة الاقتصادية في سنة ١٩٦٤، والهزيمة في سنة ١٩٦٧ .

انحطاط الهوية

إذا تطرقنا إلى ما قبل الثورة، فإنني، وعلى خلاف الفقرة السابقة، سأقول إن الثورة في التحليل الاخير، وعلى الرغم من كل شيء، كانت ضد الناصرية، وضد "اسم الشعب" وقيمه ومبادئه التي مرت بنا.

ماذا حدث بعد عبد الناصر؟ حل يمين الناصرية محل يسارها، وخصوصا مع انقلاب القصر في سنة ١٩٧١ (سمي ثورة التصحيح)، فقفز الوجه الاخر للنظام إلى السطح . قفزت إلى العلن محادثات عبد الناصر السرية مع الولايات المتحدة في سنتي ١٩٥٦ و ١٩٦٠ بشأن تسوية ما مع إسرائيل، واخذت الهزيمة تفرز تداعياتها الاقتصادية والاجتماعية بعد حرب ١٩٧٣، وسمى انصار يسار الناصرية هذا كله الثورة المضادة، باعتبار أن تجلي الهوية الحاكمة كان هو الثورة .

لقد استبقى يمين الناصرية بمحمل أدوات القمع وعززها بفعل مشروعه نفسه، فلم يعد توزيع المكاسب المعنوية والمادية على السكان ممكنا. كنا نصفق للبطل لأنه "خد القنال"، كما قال النشيد، وامم المصانع، ورفع الاجور، ووظف الناس ولو بلا عمل حقيقي .. ولم يعد هذا كله ممكنا على النطاق السابق ليمين الناصرية، وبالتالي ضاقت القاعدة الاجتماعية الراضية بالصمت.

وفي سنة ١٩٦٨، انشأ عبد الناصر جهاز مباحث أمن الدولة والامن المركزي، ليكونا ذراعاه في الشارع الذي بدأت قطاعات منه تنمرد على الزعامة.

وكانت تكلفة الاحتفاظ بالمشروع الأصلي تفوق إمكانات النظام والبلد، وخصوصا ان فرض الصمت والإدارة الامنية البيروقراطية قتلا كثيرا من الطاقات والإمكانات . ولذلك، سرعان ما اخذت " شرعية ثورة يوليو" تواجه حدودها وتدخل، مع محاولة علاج قصورها، في مرحلة من التناقضات المتفاقمة . وكان الطريق الاخر، التحول إلى اقتصاد السوق، محفوف بالمخاطر، ليس بفعل ما يترتب عليه من إعادة توزيع للسلطة والثروة فحسب، بل لأنه قام على غير أساس واضح من الشرعية، وبغير تحولات مواكبة في البنية السياسية أيضا. فالنظام السلطوي نفسه هو الذي كان يعين بعض الاشخاص في مناصب رأسماليين كبار، إن جاز التعبير، كي يضمن إحكام قبضته على السلطة، وقد اسفر ذلك عن رأسمالية احتكارية، لا بصفتها مرحلة عليا من تطور الرأسمالية، وانما باعتبارها مرحلة دنيا: إقطاعيات رأسمالية تابعة للسلطة

الامنية، وتفتقر فوق ذلك إلى الشفافية والشرعية وتدشن قانون الغاب في المجتمع، حتى ضد الرأسماليين المتوسطين والصغار.

أما توقيع اتفاق كامب ديفيد، فكان بمثابة اعتراف بفشل الخط السياسي السابق، أكثر منه عملاً يقوم على مشروعية تلائمه، وكان المنطق هو "مصر أولاً"، أو المصلحة الوطنية في إطار التوازنات، لكن من دون إجابة عن أسس شرعية قبول دولة إسرائيل أو شروط قبولها في المنطقة، ومن دون أي حوار حقيقي وانقلابات سياسية ترسي أسس اجتماعية وفكرية لهذا التحول. لقد اكتفى السادات بدلا من ذلك، بأن تتضمن معاهدة كامب ديفيد ملحقاً يتعلق بالحكم الذاتي للفلسطينيين، إلا إنه كان اشبه بورقة توت صغيرة للغاية، لم تصمد، فوق ذلك، طويلاً.

الخلاصة أن التحولات كانت في الحقيقة انحطاطاً للدولة الناصرية، لا مشروعاً بديلاً يقوم على شرعيته الخاصة، فقد ظلت الخطابات الهوياتية، بتلوينات إسلامية أكبر، سائدة عند النظام ومعارضته (بعد انتقال يسار الناصرية إلى المعارضة تحت عناوين متعددة). ومع فشل مناورة السادات السياسية لإعادة بناء الشرعية وانتهائها بمقتله، أصبحت دولة تموز/ يوليو مستمرة بالقصور الذاتي، وبمنتهى الحذر، وبلا خيال أو مشروع. ولذلك كان التحول إلى ما سمي اقتصاد السوق هو الابطأ من نوعه في العالم، ولم يتحقق من مشروع السلام سوى حده الأدنى. ومع اقتراب الدولة مراراً من الإفلاس بسبب تشوهاها الهيكلية وانعدام أي شرعية لها تفوق الفكرة الفقيرة: "شيء أفضل من لا شيء"، فإنها اضطرت في النهاية إلى الإسراع في تحولاتها، بالتقارب السريع، نسبياً، مع إسرائيل، وبالإسراع بالتحول الاقتصادي، وتبويج هذا كله بمشروع التوريت، المنطقي جداً في هذه الأوضاع.

باختصار، عجز المشروع ككل عن بناء أي تصور للدولة المصرية يختلف عن المشروع الهوياتي الناصري، أو يبنى قاعدة جديدة للسلطة. وكان التحول أبعد ما يكون عن مسيرة مظفرة، سواء وصفناها بالرجعية أم الواقعية أم حتى الثورية، بل بالعكس، فإنه كان يفاقم الشروخ في المجتمع والدولة، فقط لا غير.

علاوة على ذلك، فإن الراية الأيديولوجية الناصرية، أي فكرة الأمة والضرورة متمثلة في زعيمها، انتقلت إلى أيدٍ أخرى: إلى مشروع دولة الهوية الإسلامية خاصة، ثم إلى مختلف الطبقات شبه القومية، وسط بروز الاتجاهات الطائفية. وبدلاً من وعود النصر على إسرائيل التي أطلقها عبد الناصر، وخصوصاً قبيل حرب ١٩٦٧، لم يعد المشروع يحجل من إعلان فقره، وأصبح اسمه صراحة هو "المانعة"، مع كلام في الهواء بأن هذه الممانعة ستفضي مع الزمن إلى "فتح" تل أبيب وما إلى ذلك.

وعلى غرار الناصرية، كانت هذه المشاريع جميعها تعتمد في النهاية على تحزيم مجموعات سكانية بأكملها والسيطرة عليها ومنع الخلاف داخلها، لكن في شروط أصعب كثيراً وأقل كفاءة. لقد أصبح الاعتماد على قوة عسكرية مهمينة على طريقة السادات، مع اختلاف التوجهات، هو الطريق، لكن في غياب القدرة على فرض إجماع، إلا في الطوائف الصغيرة نسبياً. وبهذا المعنى، لم تعرض الفترة التالية للناصرية إلا النمط نفسه من الشرعية، لكن في دور أفوله، وكانت العدوانية المتزايدة لهذه الأيديولوجيا، من لجوئها السريع إلى التخوين والتكفير، وإلى القتل، علامة على هشاشة المشروع الذي تحول إلى أنياب أساساً، وعلى أنه لا يستمر إلا بالقصور الذاتي وبغياب أي بديل.

لقد تفكك المشروع الناصري إذاً، إلى مشروعين يندد كل منهما بفقر الآخر وعجزه وشروخ شرعيته.

ارفع راسك فوق.. كيف؟

تركت ايدولوجيات الهوية الشرسة وفروعها المجتمعات حطاما، ونجحت الثورة المصرية في الإطاحة بمبارك وبمشرع التوريث، وتخلصت من الهوياتية باستعمالها وطنية عامة يكمن معناها في كرامة الفرد وحرية، لا في "الهوية"، واطاحت بشعارها المركزي هذا، عفوا، بصروح بأكملها من الكلام الذي لاكتته اللسان والاقلام لعقود إلى ما بعد الملل وما بعد اليأس وما بعد الركافة.

وبطبيعة الحال لم يأت هذا التحول من فراغ، إذ شهدت الفترة السابقة صعودا عاما لطبقة وسطى جديدة من غير موظفي الحكومة، كما شهدت أشكالا ومؤسسات جديدة صغيرة للإبداع المسرحي والادبي والتشكيلي والسينمائي. وتزايد التفرد مع تعمق اقتصاد السوق، وزاد تعقد المجتمع بما أصبح يتجاوز الشرط البوليسي اللازم للهوياتية. وضعت الدولة المشروخة عن حماية مجالها الداخلي الذي تحتكر فيه الافكار والقمع على السواء، بل عن القدرة على مراقبته بتنوعاته التي تجري تحت السطح.

واصبحت هذه الدول، بدرجات متعددة، نوعا من قمامة التاريخ التي تفتش عن يد تكنسها، فلم يعد لها أي مشروعية، ولا افق، ولا برنامج، وانما باتت مجرد أكاذيب تعرف هي جيدا أنها أكاذيب تقوم على التأجيل : ثمار التنمية ستساقط إلى اسفل ؛ الداخلية ستواجه عناصر الشرطة المنحرفة وتعاقبها؛ وبصورة عامة، ذلك الشعار الفقير للحزب الوطني الديمقراطي: الاستقرار من اجل الاستمرار. لقد أخذ النظام يعاني مشكلات جوهرية في السيطرة على المواليين له، فضلا عن عجزه عن استيعابهم، حتى في حدود تنظيم مرشحيه في انتخابات مجلسه النيابي.

هذه القمامة التاريخية هي التي تجلت عارية في مواجهة الثورة، فلم يكن ثمة اي وعد ولا اي خطة، سوى القمع والكذب : النظام سيصلح نفسه كما قال مبارك (بلا أي صدقية او خطة واضحة)؛ الهوية تهددها العناصر المندسة ؛ الأصولية الدينية المتربصة ؛ الخ. وفي النهاية لم يجد النظام بعد قوى القمع سوى البلطجية يحارب بهم في عرض مزر لفقره السياسي، فلم يخلع برقع الحياء فحسب، بل كل شيء أيضا. لقد كانت الثورة مزيجا من هذا العرض الداعر، ومن شعب اشتهر بالفكاهة فأخذ يشبع الحاكم المتداعي ونظامه بالنكات، الامر الذي جعل مبارك فعلا، صاحب الرقم القياسي في التعرض للإهانة في التاريخ.

لكن الثورة المصرية ليست النور الخالص الذي انبثق بعد الظلام الدامس، سواء من حيث القيم أو أي بعد اقتصادي أو سياسي، بل ورثت أيضا ذل التاريخ الطويل من الانحطاط السلطوي . لقد برزت الانتفاضة العربية كي تعلن سريعا الموت الرسمي لعهد كان قد مات فعلا منذ زمن طويل، لكنها لم تعلن من مبادئ العهد الجديد سوى المبدأ العام : لا حرية لشعب مستعبد باسم الهوية، ولا حرية لشعب افراده مقهورون . لكن على مستوى الديمقراطية لم يكن هذا التجلي للشعب الذي "يريد إسقاط النظام " على هيئة شعب منظم من خلال آليات ديمقراطية، ذلك بأن خبرته بها أصلا محدودة . لقد أطاح الشعب، حين تجلى، بتلك الرؤية الشمولية للوطنية التي احتلت التاريخ العربي ٧٠ عاما تقريبا، منذ اواسط أربعينيات القرن الماضي، وربما قبلها بقليل، وهي رؤية عنوانها الامة، او اسم الشعب، ووضع الشعب محلها المبادئ الأساسية لمفهوم آخر للوطنية . لقد حضر الشعب، فغاب، بالتعبية، اسمه.

ولان الميراث الذي ورثه هذا الشعب من الفقر التنظيمي والسياسي كان مهولا، فإننا نفرع إلى التحرير كلما ادلهمت الامور او انبهمت، ولذلك نحطم الاقسام ونحرقها كلما حاولت الشرطة ان تتسيدنا مرة أخرى. حركة الاعداء ونداء المقاومة يجمعاننا، ونحن، بعد التحطيم وبعد التظاهر، ما زلنا نتحسس خطواتنا الاولى نحو الحرية . ما زلنا نكافح كي نضع اللبنة الأولى لمجال سياسي يتحكم في الشأن العام كي يحل محل المجال الأمني الذي حكمنا طويلا، وكي نضع المخططات ونبني النظم للتحكم في قوة الشرطة واخضاعها بشكل مؤسسي، لتكون حقا وفعلا في خدمة الشعب . ونحن ايضا نواجه ميراث الطائفية العميق، إلى آخر المشكلات . ومن خلال هذا، وغيره، نحاول أن نبني، لأول مرة في تاريخنا، دولة وطنية ديمقراطية حديثة ؛ دولة شعارها: "ارفع راسك فوق.. إنت مصري " وبالمثل .. إنت تونسي . إنت سوري إنت عربي، كي تتجلى العروبة مرة ثانية، باعتبارها معركة الحرية والكرامة الفردية .. معركة الشعب، لا اسم الشعب.

لقد تعثرنا في إقامة حكم الشعب، وستعثر مجددا، لكن العجلة لن تعود إلى الوراء، فالجثة السلطوية لم يعد هناك من يستطيع بعثها من قبرها، على الرغم من ضعفنا وحيرتنا كليهما.

يصدر قريبا عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

فلسطين

دروس الماضي وتحديات الحاضر

واستراتيجيات المستقبل

تحرير

جميل هلال